المَبحث السادس عشر

نقد دعاوي المُعارضات الفكريَّة المُعاصرة لحديثِ ذَبِح الموتِ بين الجنَّةِ والنَّارِ

المَطلب الأوَّل
سَوق حديثِ ذَبحِ الموتِ بين الجنَّةِ والنَّارِ

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«إذا صارَ أهل الجنَّة إلىٰ الجنَّة، وأهل النَّار إلىٰ النَّار، جِيء بالموتِ حتَّىٰ يُجعل بين الجنَّة والنَّار، ثمَّ يُذبح، ثمَّ ينادي منادٍ: يا أهل الجنَّة لا موت! ويا أهل النَّار لا موت! فيزدادُ أهل الجنَّة فرحًا إلىٰ فرحهم، ويزداد أهل النَّار حزنًا إلىٰ حُزنِهم»[1].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«يُوتىٰ بالموت كهيئةِ كبشٍ أَمْلَح، فينادي منادٍ: يا أهل الجنَّة! فيشرئبُّون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت! وكلُّهم قد رآه، ثمَّ ينادي: يا أهل النَّار، فيشرئبُّون وينظرون، فيقول: وهل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت! وكلُّهم قد رآه، فيُذبح، ثمَّ يقول: يا أهل الجنَّة: خلودٌ فلا موت، ويا أهل النَّار: خلودٌ فلا موت، ثمَّ قرأ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ وهؤلاء في غفلةِ أهل الدُّنيا ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩]»[2].

---

(١) أخرجه البخاري في (ك: الرقاق، باب: صفة الجنة والنار، رقم: ٦٥٤٨)، ومسلم في (ك: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، رقم: ٢٨٥٠).

(٢) أخرجه البخاري في (ك: التفسير، باب قوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾، رقم: ٤٧٣٠)، ومسلم في (ك: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، رقم: ٢٨٤٩).

المطلب الثَّاني
سَوْق المُعارضاتِ الفكريَّةِ المُعاصرةِ
لحديث ذبِح المَوت بين الجنَّة والنَّار

مِن أشهرِ ما أورده المُعترضون علىٰ حديثِ ذبحِ الموت بين الجنَّة والنَّار: مُعارضة عقليَّة مرتكزها كون الموت عَرَضًا أو معنًى، وليس جسمًا، والأعراض لا تَنقلِب أجسامًا، فكيف للمَوتِ إذن أن يُذبح؟!

فلأجل هذا التَّصوُّر توقَّف (جواد عفَّانة) «فيه متنًا، . . لأنَّ الموتَ ليس بكائنٍ حَيٍّ حتَّىٰ يُذبَح»[1].

واستنبط من ذلك (نيازي) بأنَّ أصلَ الحديث مُقتبسٌ مِن الإسرائيليَّات! حيث عثر في «العهد الجديد: كتاب أهل المسيح، ما نصُّه: . . وطُرح الموتُ وهاويةُ الموتىٰ في بُحَيرة النَّار»![2]

وأصل الاعتراضِ علىٰ هذا الحرفِ مِن الحديث قَديم، قد انقسمَ المُتكلِّمون حيالَه إلىٰ طائفتين:

طائفة لم تَرفع بحديثِ رسولِ الله ﷺ رأسًا، فلم تَتردَّد في إنكارِه والتَّشطيب عليه، ولم تُكلِّف نفسَها تفسيرَه علىٰ ما يُوافق العقلَ ولا الشَّرع.

---

(١) «صحيح البخاري مخرَّج الأحاديث محقَّق المعاني» (٣/١٦٣٨).

(٢) «دين السلطان» (ص/٩٢٢).

وأخرىٰ لم تجحَد صحَّةَ الحديث، لكنَّها استفرَغت جُهدَها في تأوُّله علىٰ غير ظاهرِه بتأويلاتٍ مُتضاربةٍ، تنزع عن الحديثِ وصمَ المصادمةِ لبَدهيَّات العقول.

يقول أبو بكر ابن العربيِّ: «لمَّا سمِع النَّاسُ هذا الحديث . . قالت طائفة: لا نقبله، فإنَّه خَبر واحد، وأيضًا فإنَّه جاء بما يُناقض العقل، فإنَّ الموت عَرَض، والعَرض لا ينقلب جسمًا، ولا يعقل فيه ذبحًا، ولمَّا استحال ذلك عقلًا، وجب أن يُمنَح الحديث ردًّا!

وقالت طائفة أخرىٰ: إنْ كان ظاهره مُحالًا، فإنَّ تأويله جائز، واختلفوا في وجهِ تأويله علىٰ أقوال . . أصلها قولان:

أحدهما: أنَّ هذا مَثَل، كما لو رَأىٰ أحدٌ ذلك في المنامِ في زمانِ وَباء، فيُقال له: هذا الوَباء قد زال، ويقع في قلبِه في المنام أنَّ ذلك هو الوَباء، وأنَّه بِذبْحِه يرتفع عن المكانِ الَّذي هو فيه.

الثَّاني: أنَّ الَّذي يُؤتىٰ به مُتَوَلِّي الموت، وكلُّ مَيِّت يعرفُه، فإنَّه توَلَّاه، فإذا استقرَّت المعرفة به، أُعدِم لهم العَدَم الَّذي عهِدوه . .»[1].

يقول ابن حجر معلِّقًا علىٰ هذا القول الثَّاني: «وارتضَىٰ هذا بعضُ المتأخِّرين، وحَمَل قولَه: هو الموت الَّذي وُكِّل بنا: علىٰ أنَّ المُراد به: مَلَك الموت، لأنَّه هو الَّذي وُكِّل بهم في الدُّنيا . .»[2].

---

(١) «العواصم من القواصم» (ص/٢٣٦).

(٢) «فتح الباري» (١١/٤٢١)، وقد سبق ابنَ العربيِّ إلىٰ هذا التَّأويل: شيخُه أبو حامد الغزالي، كما تراه في رسالته «فيصل التَّفرقة»(ص/٢٥٨ . ضمن رسائل الغزالي).

المَطلب الثَّالث
دَفعُ المعارضاتِ الفكريَّةِ المُعاصرةِ
عن حديث ذبح الموت بين الجنَّة والنَّار

فقد دَرجَ بعض أئمَّة السُّنة في مَطاوي مَعْلماتِهم الجامعةِ لأحرفِ الاعتقادِ، علىٰ عدِّ الإيمان بما تضَمَّنه حديثا ابنِ عمر وأبي سعيدٍ الخدري ﷺ مِن جُمَل عقائدِهم الَّتي يُجاهِرون بها أهلَ الأهواءِ والبِدَع، لِما صَحَّت عندهم في ذلك الأخبار عن النَّبي المختار ﷺ، ودوَّنه الجهابذة الأخيار، ونقَلوه للأمَّةِ مِن غير إنكار.

يقول عبد الغنيُّ المقدسيُّ (ت٦٠٠هـ): «نُؤمِن بأنَّ الموتَ يُؤتَىٰ به يومَ القيامة فيُذبَح، كما روىٰ أبو سعيد الخدري ﷺ»[1].

ويقول ابن قُدامة (ت٦٢٠هـ): «.. ويُؤتىٰ بالموتِ في صورةِ كبشٍ أملحٍ، فيُذبح بين الجنَّة والنَّار»[2].

ويقول صدِّيق حسن خان (ت١٣٠٧هـ): «.. والمَوت يُؤتىٰ به يوم القيامة فيُذبح، كما روىٰ أبو سعيد عن النَّبي ﷺ»[3].

---

(١) «الاقتصاد في الاعتقاد» (ص/ ١٩٤).

(٢) «لمعة الاعتقاد» (ص/ ٣٣).

(٣) «قطف الثمر في بيان عقيدة أهل الأثر» (ص/ ١٢٧).

وكثيرٌ مِن علماءِ الكلامِ -مع تسليمِهم بصحَّةِ الحديث- يُحيلون ظاهرَه، فيتأوَّلونه علىٰ المعنىٰ الَّذي تَستسيغه العقول، ولا تنكره في نظرِهم:

فمرَّةً يتأوَّلون الموتَ فيه: علىٰ أنَّه ملَك الموت -كما سبق نقله قريبًا عن ابن العربيِّ وابن حجر-.

ومرَّةً يتأوَّلونه علىٰ كونِه شخصًا يخلُقه الله يُسمِّيه الموت![1]

ومرَّةً يحمِلونه علىٰ مجرَّد التَّمثيل والتَّشبيه، وأن لا حقيقة لذلك في الخارج[2].

والَّذي يُستحسن بنا علمُه ابتداءً: أنَّا إذا وقفنا علىٰ أمرٍ من الغيوب المَحكيَّة في نصوص الوحيِ فلا نضرب له الأمْثالَ[3]؛ وجميع ما مرَّ من تلك التَّأويلات -وإن كانت خيرًا مِن جَلافةِ الطَّعنِ في الحديث بالنمرَّة- لا داعيَ لها حيث أمكنَ حملُ معنىٰ الحديثِ علىٰ الحقيقة؛ وليس مِن حقيقة الحديث تحوُّل الأعراضِ والمعاني نفسِها إلىٰ أجسامٍ مَحسوسةٍ! هذا في بدائِه العقولِ مُمتنع لذواتِه، ولا نَطق بهذا النَّبي ﷺ ولا أراده.

وإنَّما معناه المُراد به: ما أجاد ابن قيِّم الجوزيَّة الإبانةَ عنه بأنصعِ عبارةٍ في قولِه:

«هذا الكبش، والإضجاع، والذَّبح، ومُعاينة الفَريقين: ذلك حقيقةٌ، لا خيالٌ ولا تمثيلٌ، كما أخطأ فيه بعض النَّاس خطأً قبيحًا، وقال: الموت عَرَض، والعَرض لا يَتجسَّم، فضلًا عن أن يُذبَح! وهذا لا يصحُّ، فإنَّ الله سبحانه يُنشئ مِن الموتِ صورةَ كبشٍ يُذبَح، كما يُنشِئ مِن الأعمالِ صورًا مُعايَنةً يُثاب بها ويُعاقَب.

والله تعالىٰ يُنشِئ مِن الأعراضِ أجسامًا تكون الأعراضُ مادَّةً لها، ويُنشِئ مِن الأجسامِ أعراضًا، كما يُنشِئ ﷻ مِن الأعراضِ أعراضًا، ومِن الأجسامِ

---

(١) ممن قال بذا أبو عبد الله القرطبي في «التذكرة» (ص/٣٨٦).

(٢) وممن قال به: المازَري، نقله عنه السيوطي في «الحاوي للفتاوي» (٢/ ١٨٢).

(٣) «فيض الباري» للكشميري (٥/ ٣٢٢).

أجسامًا، فالأقسام الأربعة مُمكنةٌ مَقدورةٌ للرَّبِ تعالىٰ، ولا يَستلزم جمعًا بين النَّقيضين، ولا شيئًا من المُحال.

ولا حاجة إلىٰ تكلُّفِ مَن قال: أنَّ الذَّبح لملَكِ المَوتِ! فهذا كلُّه مِن الاستدراك الفاسدِ علىٰ الله ورسولِه، والتَّأويلِ الباطلِ الَّذي لا يُوجِبه عقلٌ ولا نقلٌ، وسببُه: **قِلَّة الفهمِ لمُرادِ الرَّسول ﷺ مِن كلامِه؛ فظنَّ هذا القائلُ أنَّ لفظَ الحديثِ يدلُّ علىٰ أنَّ نفسَ العَرَضِ يُذبح، وظنَّ غالطٌ آخر أنَّ العَرَضَ يُعدَم ويزول، ويصير مكانَه جسمٌ يُذبح!**

ولم يهتدِ الفريقان إلىٰ هذا القول الَّذي ذكرناه، وأنَّ الله سبحانه يُنشِئ مِن الأعراض أجسامًا، ويجعلها مادَّة لها، كما في الصَّحيح عنه: «**تَجِيء البقرة وآل عمران يومَ القيامة كأنَّهما غَمامَتان**» الحديث[1]، فهذه هي القراءة الَّتي يُنشِئها الله ﷻ غَمامتين.

وكذلك قوله في الحديث الآخر: «**إنَّ ما تذكرون مِن جَلال الله: مِن تسبيحِه، وتحميدِه، وتهليلِه، يتَعاطَفن حول العرشِ، لهن دَوِيٌّ كدَويِّ النَّحل، يُذكِّرنَ بصاحبهنَّ**»، ذكره أحمد[2].

وكذلك قوله في حديث عذابِ القبر ونعيمه، للصُّورة الَّتي يراها فيقول: «**مَن أنت؟ فيقول: أنا عملُك الصَّالح، .. وأنا عملُك السَّيء**»[3].

وهذا حقيقةٌ لا خيال، ولكنَّ الله سبحانه أنشأ له مِن عملِه صورةً حسنةً وصورةً قبيحةً، وهل النُّور الَّذي يُقسَم بين المؤمنين يومَ القيامة إلَّا نفسُ إيمانهم؟!

---

(١) أخرجه مسلم في (ك: الصلاة، باب: فضل قراءة القرآن، وسورة البقرة، برقم: ٨٠٤).

(٢) أخرجه في «المسند» (٣٠/٣٣٧، رقم: ١٨٣٨٨)، وقال مخرجوه في هامشه: «إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الصَّحيح، غير موسىٰ بن مسلم الطحان، فمِن رجال أصحاب السُّنن عدا الترمذي، وهو ثقة».

(٣) أخرجه أحمد في «المسند» (٣٠/٥٠١، برقم: ١٨٥٣٤)، والحاكم في «المستدرك» (ك: الإيمان، رقم: ١٠٧) وغيرهما، قال البيهقي في «الشُعب» (١/٦١٠): «هذا حديث صحيح الإسناد»، وقال ابن منده في «الإيمان» (٢/٩٦٢): «هذا إسناد متصل مشهور، رواه جماعة عن البراء .. وهو ثابت علىٰ رسم الجماعة».

أنشأ الله سبحانه لهم منه نورًا يَسعىٰ بين أيديهم، فهذا أمرٌ مَعقولٌ لو لم يَرِد به النَّص، فورود النَّص به مِن باب تطابق السَّمع والعقل»[1].

وإلىٰ هذا المعنىٰ نَزَع أحمد شاكر (ت١٣٧٧هـ) في تخريجه لـ «المُسند»، فبعد أن نَقل استشكالَ ابنَ العربيِّ للحديثِ ومحاولَته تأويلَه، قال مُعلِّقًا عليه:

«كلُّ هذا تكلُّفٌ وتَهجُّم علىٰ الغيبِ الَّذي استأثر الله بعلمِه، وليس لنا إلَّا أن نؤمن بما وَرد كما وَرد، لا نُنكر ولا نتأوَّل؛ والحديث صحيح . . وعالم الغيب الَّذي وراء المادَّة لا تُدركه العقول المقيَّدة بالأجسام في هذه الأرض، بل إنَّ العقول عَجزت عن إدراكِ حقائق المادَّة الَّتي في مُتناول إدراكها، فما بالها تسمو إلىٰ الحكمِ علىٰ ما خرج مِن نطاق قدرتِها ومِن سِلطانها؟! . . فخيرٌ للإنسانِ أن يُؤمن وأن يعمل صالحًا، ثمَّ يَدَع ما في الغيبِ لعالمِ الغيبِ، لعلَّه ينجو يومَ القيامة»[2].

والحمد لله.

---

(١) «هادي الأرواح» (ص/٤٠١-٤٠٢).

(٢) «مسند الإمام أحمد» بتخريج أحمد شاكر (٥/ ٣٣٣).

قلت: د. يوسف القَرضاوي -وهو مِمَّن نحا مَنحىٰ الاستبعادِ والإحالةِ للحديث- بعدَ نقلِه إنكارَ أحمد شاكرٍ علىٰ ابنِ العربيِّ تأويلَ الحديث، اعترفَ أنَّ مسْلكَ شاكرٍ يقوم علىٰ «مَنطقٍ قَويٍّ ومُقنِعٍ»، لكنَّه رجَّح مع ذلك طريقةَ المُتأوِّلين للحديث؛ حيث قال في كتابه «كيف نتعامل مع السنة النبوية» (ص/١٨٢):

«كلام الشَّيخ -يعني أحمد شاكر- . . يقوم علىٰ مَنطقٍ قويٍّ مُقنِعٍ، ولكنَّه في هذا المَقام خاصَّةً غير مُسَلَّم، والفِرار مِن التَّأويل هنا لا مُبرِّر له، فمِن المَعلوم المُتيقَّن الَّذي اتَّفَق عليه العقل والنَّقل: أنَّ الموتَ الَّذي هو مفارقةُ الإنسانِ للحياةِ ليس كبشًا، ولا ثورًا، ولا حيوانًا مِن الحيوانات؛ بل هو معنىٰ مِن المعاني، أو كما عبَّرَ القدماء: عَرَضٌ من الأعراض، والمعاني لا تنقلِبُ أجسامًا ولا حيواناتٍ؛ إلَّا مِن بابِ التَّمثيل والتَّصوُّر الَّذي يجسِّم المعاني والمَعقولات، وهذا هو الأليق بمخاطبةِ العقلِ المعاصرِ، والله أعلم».

وقد سبق ترجيح النَّأي عن هذا المسلك في التَّعامل مع الحديث في أعطافِ كلامِ ابن القيِّم، ولَم أرَ د.القَرضاويَّ يشير إليه موافقةً أو مخالفةً، فلعلَّه لم يَرَه أو لم يُقنعه، والله أعلم.